استشهد أخيراً

يتقلب على فراشه تقلب الملسوع وبرفق يسند ذراعه الجريحة بوضع مـريح ثـم يستعرض سلسلة من آثامه وخطاياه، ألا ليت يديه شلتا وعظامه بريـت وعينـاه سملت قبل أن يكون سكّيناً في يد الاستعمار تقطع في رقاب بني جلدته من الثوار والمجاهدين. إنه ليذكر زمنا كان فيه بوليساً تحرياً يتجسس على بني قومه، علـى المناضلين في سبيل كرامتهم وحريتهم فيكتـشف مكـامنهم ويفـشي أسـرارهم للمستعمر، ثم ينقض كغراب البين بمساعدة جلاّدي بلاده يقتل من يقتل ويزج فـي السجون ويعذب من يرميه سوء الطالع بين يديه. هذه الذراع الجريحة الـضعيفة المعذبة اليوم كم هوت بالسوط على ظهور الثوار لتستلّ من بين شفاههم أسـرار زملائهم فتفلح حيناً وتفشل أخرى، فتزيد بقسوة لا تفهم الرحمة واثقة بأن نجاحهـا مكفول في النهاية.. ويكفّ السوط في يده فجأة والضحية تعترف وترتـسم علـى الشفاه ابتسامة شيطانية ثم يهوي على ظهور ضحايا جديدة.

مرة واحدة لم يفلح السوط وعاد خاسئاً لم يفتح شفاه ولم يصغ إلى اعتراف.

لقد وجم إذ رأى ضحيته جثة لا حراك بها وأحس بانقباض مرير ولكن سرعان ما انبسطت أساريره إذ سمع قهقهة جنود المستعمر وعلم أنهم يقدرونه.

لقد مرت الحادثة في خياله الآن ممزوجة بآلام ذراعه الجـريح فهالتـه جريمتـه النكرة.. ويحار! أكان ميت الضمير، فاقد الإحساس والوجدان! أكان مختل العقـل حتى يشتري بعذابات بني قومه الأحرار وبدمائهم وسام مصاص الدماء الفضي؟

لقد حقد على نفسه حقداً ود معه لو يحطم هذه الآلة البشرية التي لـم يقـدها فـي حياتها سوى روح شرير!

إنه لا يستحق الحياة.. إنه لا يستحق الحياة.. يجب أن ينتهي وبسرعة..

أيكفي أن ذراعه اليوم بها جروح فاغرة في جهادها في سبيل مجد الوطن؟ أيكفي أنه خاض عشرات المعارك وأبلى فيها البلاء الحسن؟ أيكفي أنه عاهد الله وإخوانه أن يجاهد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الحق في أرض السلام؟

إنه مهما فعل، ولو تطهرت نفسه كنفوس الأنبياء وفاقت حـسناته حـسناتهم لمـا استوت وسيئاته بل لو استشهد، لما كفر عن قتله نفس مجاهد عربي بحد السوط..
لن يكفّر عنه أنه تاب وأناب وثاب إلى رشده وملأ إيمان عميق فؤاده حتى أبـدل اسمه الأول "بنور الله" وجاهد جهاد المستميت وكسب عدة معارك ودافع عن عدة مراكز، وأنه جرح في المعركة الأخيرة، وربما كفر عنه أنه يبرهن باستشهاده أن روحاً جديدة نقية طاهرة تسير دفة حياته، وبها قدم على إهراق دمه فـداء الحـق والواجب...
ونمت فكرة الاستشهاد وتأصلت.. يجب أن يستشهد يجـب أن يستـشهد! ولـيكن استشهاده عظيماً رائعاً كهذا الإيمان العارم الذي ملأ قلبه..
إن الله الذي أنكره وجحد نعمته وفعل في الماضي كل ما يثير نقمته، نوره اليـوم يشع في أعماقه فيبدد الظلمات، ويستحثه لفعل كل عمل هائل نبيل..
إنه موجود ما دام موقناً بوجوده، وإنه غفور ما دام يأمل غفرانه...
كان يستمد القوة في الماضي من أحياء فانين خذلوه عندما خذلتهم السلطة والجـاه فكانوا أضعف من أن يثبتوا عندما دار بهم الزمن، وكان أحقر من أن يفكروا بـه في محنته فخلفوه عياله بغير رزق، ونفسه مبتور الإخوان والأصدقاء..
أما الله فلن يخذله، وهو كفيل بالصفح، وأما اليوم، فالكل له إخوان وأصـدقاء، إلاّ من طغى فهو حرب عليه لاهبة..
هو حرب على الطغيان حتى يستشهد فيكون الاستشهاد نهاية عظيمة لهذا الانقلاب النفساني العظيم.
واستدار الجريح في مضجعه فحزت آلام ذراعه وعض على شفتيه مـسكناً ألمـه لئلا يوقظ إخوانه في المعسكر. وعندما استراح قليلاً غمغم بندم مرير محدثاً نفسه: "هذه الرصاصة التي أصابت ذراعه لو انحرفت قليلاً فأصابت قلبه لكان اليوم جثة هامدة غير قادرة على التفكير والحركة والشعور، و لانتهي كل شيء بالنسبة إلى ذاته.. فما أحمقه وما أفظع أن سعى في الماضي إلى اقتراف كل عمل مخز ليرفه جسداً تجعله أثراً بعد عين رصاصة واحدة..

ذهب الماضي.. إنه حلم.. بل الحياة كلها حلم فإن كانت اللحظة الحاضـرة التـي يحياها هي الحقيقة فما أقصر الحقيقة أمام حلم الماضي.

كذب إن كان الماضي ينسى ويزول.. إنه حي فيه، إنه شطر من حياتـه كبيـر، شطر مزعج فأحلام مزعجة وحاضر معذب..

صورة المجاهد العربي الذي استشهد تحت حد سوطه لا تترك مجـالاً لاطمئنـان نفسه.

عند حدوثها منذ عشر سنوات مضت.. لم يشعر بهول جريمته بل اعتبرها مظهراً من مظاهر قوته وبطشه، فغبط نفسه أن بوسعه قتل نفس بغيـر أن يقـتص منـه القانون.

أما اليوم بل منذ أشرق الإيمان في قلبه واستيقظ ضميره، فهو يتعذب وهو يقاسـي وهو يقتص من نفسه إنه يطهر ذاته ليقف يوماً أمام ربه بقلب ثابت ووجه لا غبار المذلة عليه!

وأحس الجريح بضيق فاستوى في فراشه وأسند رأسـه بيـده.. وشـعر بحاجـة لاستنشاق هواء نقي فسار بهدوء إلى باب المخيم.

الظلمة تغمر الكون فلا تبدو حتى أطياف الخيام الأخرى، وسمع حديثاً خافتاً فلـم يبال.. لقد عرف فيه صوت الحارسين الليليين وحاول العودة بعد أن استنشق هواء الليل البارد النقي لولا أن طرق سمعه اسم "نور الله" فبماذا يتحدثان عنه يا ترى؟

وتنبهت حواسه وأصغى بسمعه:

-" يجب أن نأخذ حذرنا منه فمن يدري أنه لا يتقنع بإيمان مزيف ليخدعنا ويفشي أسرارنا للعدو؟"

وأجاب الآخر:

-" لا أستطيع أن أسيء الظن به إلى هذا الحد.. إن لي رأياً في الرجل وبوسـعي التمييز بين الإخلاص والنفاق إنك لم تره وهو يقسم أمامنا على المصحف الشريف أنه قد غير ما بنفسه، وأن يده لن تكفّ عن قتال الأعداء حتى الاستشهاد.

كل نبرة من نبرات صوته وكل تألق في عينه كان ينطق بأن الرجل أصبح غيـره بالأمس، أصبح جديراً بثقتنا واحترامنا بل بإعجابنا"

-" ولكني لست أفهم كيف تتحول الأفعى السامة إلى ملاك ذي أجنحة بيضاء بـين عشية وضحاها.. إنكم لواهمون في شأنه.. ولعلّ أكبر حافز نفسي دفعه للاشتراك معنا في المعارك، أن يكسب مغنماً ويقبض راتباً منا وربما آخر من الأعداء، فمن يدري! إنه دائماً ماهر في نفاقه"

-" بل أنت الواهم.. إنك لا تدري أبداً بأن المخطئ التائب لأطهر نفـساً وأسـرع للخير ممن لم يخطئ ولم يتب.. ففي الأول المناعة، وفي الثاني ميل لإغراء النفس الأمارة بالسوء..

لا يستطيع من يرى هذا الرجل يخوض المعارك أن يعتريه شك في إخلاصه، في أنه رجل يتمنى الاستشهاد ولكن الله يطيل بقاءه بالرغم من تعرضه للمهالك ليزيد انتفاعنا به"

-" انتفاعنا به! به وبأمثاله من الخائنين وأذناب الاستعمار تلقى فلسطين اليوم مـا تلقى من أهوال"

وعاد نور الله إلى فراشه بقلب وجاب وأطراف باردة مطعون النفس كسير الفـؤاد يقنع نفسه أنه لا يبالي رأي الناس فيه، وحسبه أن الله يعلم خبيئة نفسه، وأنه مـع ذلك يبالي ويريد أن يبرهن إخلاصه وقوة إيمانه.. يجب أن تعود سمعته ناصـعة البياض ولن تتطهر من أدرانها إلا بالاستشهاد.

الاستشهاد! الحل الوحيد لعذابات نفسه، خاتمة المطاف في تفكيره.. الاستشهاد!

ما أعذبه لقلبه.. أنه يتمنى حدوث معركة في هذه اللحظة ليكـون فيهـا الجـلاد والضحية..

وتصور نفسه غريقاً بدمه وحوله زملاؤه يتبادلون النظـرات، نظـرات الأسـى والأسف والإكبار. وأغفى والصورة لا تزال مرتسمة في خياله..

....

أفاق الجريح على صفير الإنذار.. هجوم مفاجئ قبيل طلوع الفجر.. وهب رفاقـه وساد الهرج والمرج ومن خلال أهدابه أخذ يراقبهم يتمنطقون بالقنابـل اليدويـة ويتسارعون في حمل صناديق الذخيرة والمـدافع الرشاشـة، ويهرعـون نحـو مراكزهم وراء المتاريس الأمامية، ولم يبال أحد به، وفي ثوان خلا المخيم إلاّ منه

فقام إلى ثيابه العسكرية يرتديها وإلى أسلحته يتدجج بها ويسير نحو زملائه بخطى سريعة يخفيه الغبش عن أنظار العدو وكان تبادل العيارات النارية على أشده بين الطرفين تتخلله طلقات المدافع الرشاشة..

وصاح الضابط العربي المسؤول عن المجاهدين "كفوا عن إطـلاق النـار تكـاد ذخيرتنا تنفذ! سيحاولون الزحف نحونا عندما تصمت طلقاتنا فنستعمل حينئذ قنابلنا اليدوية. وما كاد يتم كلامه حتى سمع دوي قنبلة تنفجر وثانيـة وثالثـة ورابعـة وتبعها إطلاق العيارات النارية قريبـة سـريعة متلاحقـة.. وفـوجئ الـضابط والمجاهدون ولكن الضابط تمالك أعصابه وصاح:

_ لقد أخذنا على حين غرة فإلى المتاريس الأخرى هيا أسرعوا ورن صوت نور الله في الظلام "قنابل يدوية.. أنجدوني بالقنابل"

وتسارعت الأيدي تناوله مبتغاه وانتفخت جيوبه ومرق كالسهم واختفى شبحه.

ومضت فترة توقف فيها المجاهدون عن إطلاق النار خوفاً من أن تصيب زمـيلهم وأمسكوا لهاثهم وهم مصغون إلى انفجار القنابل وأزيز الرصاص.

وانبثق نور الفجر الضئيل على الكون وخشي المجاهدون طلوع النهـار قبـل أن يعود نور الله ولكن صوت المعركة انقطع وتفاءل الجميع خيراً.

وبان شبحه فهرع إليه المجاهدون يعانقونه ويهنئونـه وأدخلـوه إلـى مـا وراء المتاريس، وسلطوا عليه النور الكشاف وهم ما بين مستفهم ومهنئ.. وشعر نـور الله بألم شديد في ذراعه فظن أن الجرح القديم ينزف وما درى أن جرحين جديدين أصابا الذراع نفسها أثناء المعركة حتى كشف على ذراعه أحد المجاهدين وابتسم قائلاً "سليمة هنيئاً بنجاتك"

فأطرق نور الله حزيناً وأجاب "وددت لو هنأتموني باستشهادي.

ودوت في تلك الأثناء قنبلة يدوية قريبة، فتفرق الجمع وسرت الهمسات" إذن لـم يول العدو الأدبار، تاركاً كل من بقي حياً من الأعداء."

وانتصب نور الله واقفاً وهوت قنبلة أخرى داخل الاستحكام قريبة منه، وفي أسرع من لمح البصر هوى فوقها يضم جوانحه عليها..

وافت ساعة الاستشهاد، وانتشرت أشلاء نور الله عند انبلاج الصباح والمجاهـدون ذاهلون عن أنفسهم وعما حدث.. وتبادلوا النظرات نظـرات الأسـى والأسـف والإكبار وهمسوا كأن ما هتف في قلوبهم واحد:

"هنيئاً لك الشهادة يا نور الله"!!